مذكرات (آنا)

بقلم (ى)

— ١ —

ولى من جيل ثلثه وكأنه ما مر وها عيناى تتطلعان إلى الخلف قصد استقصاء ما فات فلا تريان سوى ماضياً منسياً ترصعه ذكريات تكاد تكون قاتمة وعبثاً يحاول فكرى تحريك مياه الامس الآسنة . بالطبع ولدت ودرجت ثم مررت بدورى الصبوة فالشباب كبقية جميع الناس ولكنى وأنا على وشك دخول باب الرجولة يخيل الى أن باب الفتوة أيضاً سيوصد خلفى بعنف فلا يتبقى لدى منه بعدئذ غير ذكريات المراحل التى سبقته. لذلك أنا أقيد مابقى في ذاكرتى منه وهو غير كثير

تألمت كثيراً وسعدت ولكن من لى بالذى يصور له دواعى الغبطة والتعاسة لازنهما بميزان العقل عساى أرى هل كنت محقاً أو غير محق فى ذرف تلك الدموع وفي ارسال تلكم التنهدات، بل هل كانت شفتاى تنفرجان عبثا بالابتسامات وهل كان فؤادى يخفق سروراً للاسباب .

إيه من الشباب! خبرنى فأنت هو الاقرب وقل كيف يخاطب القمر بل كيف يتفاهم الناس مع الزهور ويوسطون النسيم بينهم و بين من يصبون اليه . لا تنزعجوا أيها المحبون فتلبى لم يعد يفهم للفظة الحب معنى فقد شاخ ، أجل شاخ ولما يمض عليه أكثر من ثلث قرن بعد

الدماغ النشط لم يعد كما كان بل أصاره الزمن ساحة نضال يناجزفيها المعقول غير المعقول وذلك القد المعتدل الذى كان يعجز صاحبه عن تقدير قيمته أصبح عباً ثقيلا ولم تتقدم خطواتى لتقطع مرحلة الربيع بعد

وأين تلك الساحرة التى كانت تبدل اللحن تغريداً وتقلب الشعر آيات بينات. فهذه هي قصائد الغزل والنسيب ملقاة جانباً لا أجد فيها لذة ولا شبه لذة .

أحقيقة خلق الله عينين اثنتين فقط لحاظهما كالسهام القاتلة وجعل لها صدراً يقتبلها مغتبطاً هانئاً ؟ أحقيقة منح الله لغادة واحدة فقط قداً أهيفاً في إمكانه أن

يصعق إذا أدبر وبقدرته أن يحيي إذا ما أقبل ؟ أأوجد الله إنسانة لا شبيهة لها لا تنفرج ثناياها إلا عن نغمات مطربة ؟

تكلموا أيها المؤمنون وخبروني هلا تزالون تقيسون سعادة المؤمن بمقدار ما ينصب عليه من الألم ؟.. الألم المضنى ، الألم الساحق الملازم للذلة والاستكانة مع الاستسلام التام ؟ هذا ما كنت أشعر به عند ما عرفت معنى الايمان . ها أنا أتطلع إلى صورة شمسية لامرأة لا تفترق أبداً عن أية من اللاتى تقابلهن فى الطريق ، قدها مشابه لقدهن وعيناها كبقية الأعين وملامحها لا تستحق اهتمام تلامذة روفائيل ، ومع ذلك أقسم أن الصورة لم تعد جذابة كما كانت وأقسم أيضاً أنها لم تخرج منذ سنين عشر من مخبأها وانها هى هى لم تستبدلها يد أثيمة بأخرى دونها بمراحل في الجمال

لم قضيت إذن تلك الليالى الطويلة متحملا زمهرير الشتاء وأنا أطوف حول المنزل الذى كانت تقطنه غير عابئ بالريح الصرصر العاتية وغير شاعر بافوامالقرب تقذفنى ماء وبرداً ؟ ولم كنت أقف فى طريقها غير مهتم بما كانت تسلطه على ذكاء ودون أن أزيل نقط العرق الذى كان يغمر جسدى وذلك فقط كي أسعد برؤية محياها لا أكثر

ولما كنت أمدد ليدها يدى كنت أشعر بقلبي ساكناً كأنه لا ينبض وكنت أغمض عينى وكان يمتنع تفكيرى .وأكثر من هذا وذاك كان ينعقد لسانى ويعترينى ذهول أعتقد تمام الاعتقاد أن متعاطى المغيبات لا يتحصلون على شيء مشابه له ولو بعض الشبه.هذا إذا تمكنوا من استهلاك كل ما تصل اليه أيديهم منها

وكنت أقرض الشعر ، صدقونى اننى كنت أفعل ، وكان شعراً أقل ما يقال عنه أنه طالما أطرب آرابى فاستعادونى اياه . وكانت أناملى تتحرك به بينا ذهنى عنه منصرف الى لاشيء لوصح له هذا التعبير وكنت أشعر بقلبي ينتفض وكم تصورت أن الذى كان يملى على بنانى ما كنت أحسبه كافياً لابتهاج الانس والجان كما يقولون . ولكن ها هى مجموعة السخافات المكونة من الفاظ مبتذلة جوفاء ملقاة أمامى على المنضدة وها أنا أضن عليها بنظرة بعد ما كادت عيناى تلتهمها

كل يوم مئات من المرات وأنى شهيد بان شفتاى تعودتا تقبيلها كل يوم مرات بمبلغ ما كنت أفهمه من معنى الخشوع وكان ذلك في وقت من الأوقات

مسألتى أطرحها لعلماء النفس وأنا يائس تماما من قدرتهم على الاجابة والى الذين يجرى فى عروقهم دم الشباب أقدمها وأنا ضامن أنهم لن يحيروا جوابا بل ينغمسون فى حبهم إلى آذانهم وسوف يتساءلون كما أنا أتساءل الآن ولكن حين لا ينفع سؤال

— ٢ —

يالسنين الشباب الملآى بالاحلام والتفاؤل. هي فترة من العمر يبلغ الانسان فيها غاية مايصل اليه طول حياته من الميل الى تصديق كل ماتسمعه أذناه مما يحب ومما يكره . وكنت بدأت أدرس الفلسفة الاخلاقية فحفظت ماحوته كتبى المدرسية من معانى وتفاسير الخير والشر وكنت أبذل جهدا عظيما لا كون نموذجا للخير الذى وصفوه لى وبت أعتقد تماما أن مدرس الفلسفة الاخلاقية منزه عن الشر وخدعتنى عيناى فابصرت موجة الاخلاق الفاضلة تكتسح من الوسط الذى كنت فيه آثار كل شىء ردىء . هكذا عشت عيشة نقية بسيطة زاهدا فى اللذة محرمة كانت أو محللة فاذا ماتصادف واجتمعت بشخص لم يسبح فى فلسفة الاخلاق كما كنت أنا ووسطى نفعل، فسرعان ما كنت ألاحظ أنه فى حاجة الى استماع محاضرة أخلاقية وبالفعل كنت اقرعه بالوعظ والارشاد الى أن يفلت من موقفه بمعجزة وهو يتنهد شاكيا سوء حظه

حقيقة كنت قانعاً بوجه الدنيا المضىء الذى نبهت الى وجوب النظر اليه دون غيره وحقيقة كنت أشعر بسعادة أعجز عن وصفها الآن وكانت سعادة بلهاء ساذجة ولست أعرف بالضبط كم من الوقت ظلت هكذا! مؤمناً أقول بامكان الحياة الى الابد في الجو الذى ألفته الى أن شعرت بيد أستاذ الفلسفة الاخلاقية تصفعنى دون رحمة فأصبت بذهول . أجل فقد كذب وكنت أظنه عن الكذب معصوما ولم يكن لدى مجال للشك فى انه كذب متعمداً واذا بالماضى يرتد نحوى حاملا مجرياته فلاحظت لسوء الحظ ذلك الرجل ـ دون غيره ـ في أحقر مايمكنك

تخيله من الصور فبدى لى كذبه فى حوادث عديدة . فياله من ذئب اتخذ شكل حمل وديع .فكرهته سراً فيالبدء ولم ألبث قليلا حتى تشجعت فجاهرت للمقربين بسرى العظيم المكنون ولم تنته السنة المكتبية حتى وكان لى حزب لا يستهان به من الرفاق مجمع على احتقار « الوغد الكذاب »

وبدأت السنة الجديدة فحضرت على أستاذ خصص لتدريس علوم المنطق والاقتصاد والنفس والاجتماع معا وكان عملياً وميالا للاخذ والرد مع تلامذته يفحمهم دائماً ولكنه في بعض الاوقات يتظاهر أمامهم بأنه كان مخطئاً فيعترف بخطأ ،وهوم وأظنه كان يفعل ذلك ليعلم تلامذته أن الرجوع للحق فضيلة وكان ملحداً . هذا ما كنا نعرفه عنه وكان السبب فى احتراسنا منه ؛ فكنا نتعمد التشاغل عن درسه حتى لا تجد تعاليمه الالحاديه منفذا الينا ولكن لباقته أفلحت في جذبنا الى مجال المناقشة معه وهو ما كنا نتحاشاه جهدنا إذ كان كلنا يعتقد ان الغير قد يغتر بألفاظه الخلابة فيفقد إيمانه وصار كل منا ينتهز الفرص ليختلى به ويقارعه الحجة بالحجة وكنت أحد المغرورين الذين يمنون أنفسهم بالانتصار عليه ولذلك فعلت كما يفعل الجندى قبل نزوله ساحة القتال فتزودت بكلما حوته كتب الاخلاق التى تمكنت من الوصول اليها و بدت لى فرصة صالحة . فقد كان يتكلم عن الملكية فتدرج الى شرح رأى الاجتماعيين من أنها نتجت عن السرقة وعن الاستئثار بقوة الزراعة ثم أردف يقول ان البعض يدعى أن «لاتسرق» ليست الا وصية الذين امتلكوا للذين لم يكن لهم مايملكونه، والمقصود منها المحافظة على الغنيمة. و بعضهم يقولون ان بقية النظريات الاخلاقية وضعها أشخاص أنانيون استلبوا وأبوا على غيرهم أن يعاملوهم بالمثل.فاذا بعينى تقدحان شررا فصحت به أنت تكذب، ذلك فى نفس الوقت الذى فيه صاح الرفاق محتجين ولكنه لم يغضب بل تبسم وقال لى أظنك تقصد أن تقول أن ما قلته خطأ فاعلم أنه قول الغير لاقولى ثم أجابنى بان عمله يحتم عليه بسط وجهات نظر الناس لنا لكي نستنتج منها ما نظنه معقولا وكذلك أجاب أن الخطأ والصواب اصطلاحان نسبيان مثلهما مثل الخير والشر ثم قال بان اقتصار المدارس على ملء أدمغة الطلبة بنوع مخصوص من التعاليم مضر

جهم كل ضرر فان خطب دلبة البلهمات ينحصر في جهلهم بحقيقة الواقع وهو أمر خطير إذ لا يكون اندهاشهم عظيما عند ما يفاجئون بعد خروجهم للحياة العملية بوجود وسط غير الوسط الذى كانوا يتخيلونه وقد تتواتر عليهم الصدمات فتفل عزائمهم ويسقط في يدهم أو ربما انقلبوا حانقين على الوسط لدرجة قد يصيرون معها أعداء للمجتمع. وقضيت معه ساعة بعد انتهاء الدرس. وأعترف اننى دهشت عند ما أظهر لى أن مدرس الاخلاق لم يخرج عن كونه انسان له سقطات قد يضطر اليها أو يختارها ظنا منه بانه ينقذ الموقف أو بالاقل ليعطيه رونقاً وجاذبية وهل يوجد فى الناس من هو معصوم عن الخطأ

ومع انه قد انقضى على ردح طويل من الزمن وانا فكر، اعترف بانى لا أزال عاجزا عن أى الطريقتين اتبع وهل يجب علينا أن نظهر لابناءنا العالم

(١) كما يجب أن يكون أو

(٢) كما هو الآن بحسناته وسيئاته

ولكن والحق يقال أنا أميل الى الرأى الثانى فان المتفائل قد ينقلب متشائما خطرا اذ ظن ان العالم هو عكس ما ظنه تماما ذلك بخلاف الذى يتمرن على فهم الدنيا بخيرها وشرها فقد يتباها على ماهى عليه أو ربما ساعدته الظروف فينقلب متشائلا متطرفا

هذا موضوع يستحق البحث أيضاً أليس كذلك ؟

ملخصة بتصرف

(. . .)